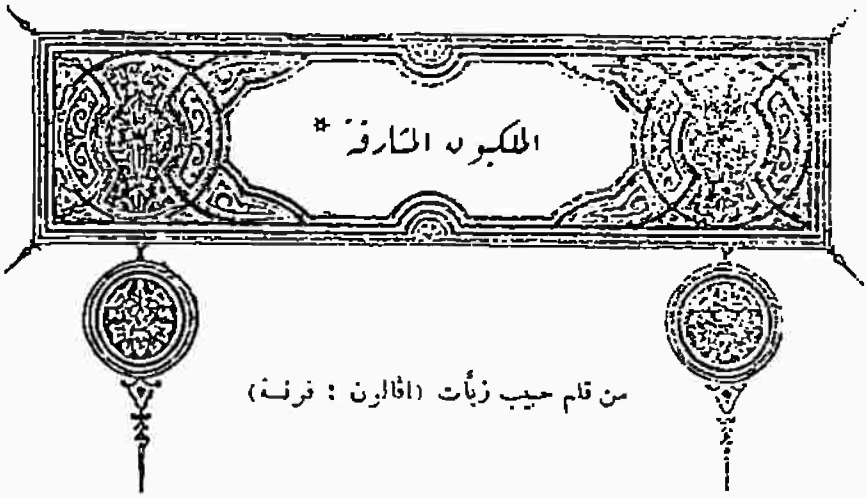

الملكيون الشارقة *

من قلم حبيب زيّات (أقالون : فرنسة)

هم ناقلة من عمان وارض البلقاء ، رحلوا الى القدس ، ونزلوا منها في محلة عُرفت بهم ، ودُعيت محلة المشارقة لانهم من شرقي القدس[1].

وقد بحثنا طويلاً عن سبب هذا الانتقال وزمانه فيما اتصل بنا من الآثار العربية ، فلم نظفر بطائل ، الى ان وُفّقنا للعثور على فصل جزيل الفائدة لمؤرخ الصليبيين غليوم الصوري الشهير . وهذا تعريب ما رواه بتاريخ سنة ١١١٥ ، قال في كلامه عن بيت المقدس والملك بودوين الاول :

« لما كان الملك عاقلاً متطلعاً الى كل ما يتعلق برتبته ، فكر يوماً ان مدينة اورشليم ليست آهلة باقوام يستطيعون ان يدافعوا عنها اذا دعتهُ مصلحة النصرانية الى التغيب عنها . فكانت من ثم عرضة للخروج عن يده ، خلوها من يحمي ابراجها واسوارها وابوابها . لاسيما والمسلمون يحومون دائماً حولها كلما بلغهم ان الملك بعيد عنها . فاشتد به القلق لذلك . واستشار بعض اصحابه كيف يفعل ليعتاض عن المسلمين الذين كانوا فيها قبلاً . وقُتلوا باجمعهم لما استولى عليها . وكانت قد بقيت منهم بقية اخرجهم عنها الصليبيون . لاعتقادهم ان من اقبح العار والرجس ان يقطن الارض المقدسة اقوام لا يؤمنون بالمسيح[2].

---

*) فصل من كتاب « الروم الملكية في الآثار الاسلامية »

١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي ، طبعة مصر ، ص ٣٤٨

٢) لا يستغرب مثل هذا الاعتقاد في مثل تلك الايام ونظائره شائعة في كل النحل والملل . ومعلوم ان عمر بن الخطاب اجلى من بقي في ايامه في الحجاز من اليهود والنصارى الى

فلم يلبث احد منهم بالمدينة . وكانت النصارى فيها ايضاً قليلين جداً لا يكادون يملأون اكبر شوارعها وخصوصاً السريين منهم لانهم منذ جاؤوا اليها تعمدهم اصحابها المسلمون بانواع الاذية والتضييق حتى كرهوا المقام فيها . وكانوا منذ أُخذت انطاكية يستريبون بهم ويقتلونهم لايسر علة بحجة انهم هم الذين خاطبوا الافرنج وراسلوهم في الحضور لقتال المسلمين .

« وبينما كان الملك مشتغل البال بهذا الهم بلغه ان في ما وراء نهر الاردن في البلاد العربية طوائف من النصارى قد اتخذهم الاتراك عبيداً وخولاً . فارسل اليهم بالعاجل . ووعدهم اذا احبوا ان يستوطنوا القدس ان يعطيهم اكثر مما لهم هنالك . بحيث يعيشون اعزاء بين اخوانهم في الدين . فلما تسامعوا بهذه الوعود اقبلوا فرحين ومعهم نساؤهم واولادهم ومواشيهم وكل اموالهم على قدر ما استطاعوا . وحضر ايضاً من سائر البلاد الاسلامية اقوام من المسيحيين عندما بلغهم دعاء الملك ووعده باعطاء الارزاق . بحيث غصت بهم المدينة وشغلوا كل فراغ فيها . ووفى لهم الملك الاقطاعات والهبات . وكان اعدل ملك واشرفه في اشرف بلد . »[1]

وكان اكثر هؤلاء النازحين الى القدس من جهات عمان وحسبان وإربد والصلت وما جاورها من اعمال البلقاء ، وقد قدر خليل الظاهري جملة القرى المضافة اليها في زمانه بنيف وثلاثمائة قرية[2] . وكان يُطلق على ما كان منها شرقي الاردن اسم البلقاء . ولذلك عُرف القادمون منها بالمشارقة كما تقدم من لفظ القفطي . وكانوا جميعهم من الملكيين . وقد شهد غليوم الصوري ان بيت

الشام ، لما بلغه قول محمد في مرضه الذي مات فيه « لا يبقى دينان في ارض العرب » . وعند الشافعي ان الحجاز يتناول مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها . وفي مذهبه ان النصارى يجب ان يتموا ايضاً « ركوب بحر الحجاز ويتموا المقام في سواحله . وكذلك ان كانت في بحر الحجاز جزائر او جبال تُسكن مُنعوا سكناها لانها من ارض الحجاز » (كتاب اختلاف الفقهاء لابي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ليدن ، ص ٢٢٣–٢٢٥)

١) Guillaume de Tyr. Texte français, Paris 1879, t. I, p. 425-427

٢) زبدة كشف الممالك ، طبعة باريس ، ص٤٦

المقدس لم يكن فيه قبلاً سوى الارمن والروم فيما عدا اللاتين[1] . ولكنه لم ينقل لنا شيئاً من اخبار هؤلاء المشارقة . فلا ندري كيف كانت حياتهم بين الافرنج . وما كان تأثير هذا الجوار في اخلاقهم وعاداتهم ومآكلهم ومشاربهم ولغتهم وازيائهم . وغاية ما نعلمه من هذه الازياء التي قلد الصليبيون في بعضها اهل البلاد ان الاطباء من المشارقة الملكيين كانوا يلبسون جوخة مأوطة (mariota) زرقاء ، وهي شبه جبة فرنجية . وعلى رأسهم كوفية وتخفيفة صغيرة . قال ابن أصيبعة وهو زي اطباء الفرنج[2] . قدم به الى دمشق الطبيب موفق الدين يعقوب بن سقلاب الملكي الشرقي وانكره عليه طبيب صلاح الدين اسعد بن المطران . ومما يجدر التحسر عليه ضياع كل كتاباتهم باسرها . فلم يتهيأ الينا منها صفحة واحدة من لغتهم العامية لنقف على مقدار ما داخلها من المصطلحات والعبارات الفرنجية .

ولا ريب ان هؤلاء الملكيين كانوا قد حافظوا على تقاليدهم الكاثوليكية ولاسيما بعد مخالطتهم للصليبيين وانقيادهم الى بطريرك لاتيني بعد وفاة بطريركهم سيلون الذي ذكره غليوم الصوري بالفضل والتقوى ، وروى انه كتب مع نخبة من اعيان ملته عدة رسائل في الاستغاثة بالبابا وملوك الافرنج لانقاذهم من الظلم الذي كانوا فيه[3] .

وقد اشتهر من هؤلاء الملكيين المشارقة افراد من افاضل الاطباء نظير موفق الدين يعقوب بن سقلاب ، وابنه سديد الدين ابي منصور ، نلخص ترجمتهما عن جمال الدين القفطي وابن ابي أصيبعة بعد النقد والمعارضة .

الطبيب موفق الدين يعقوب بن سقلاب المشرقي الملكي

في كتاب اخبار العلماء للقفطي ، في المطبوع منه والمخطوط ، ان اسمه يعقوب بن صقلان بالنون . وكذا في تاريخ مختصر الدول لابن العبري . وقد

(١) Guillaume de Tyr, *op. cit.* t. II, p. 199

(٢) عيون الانباء ٣ : ١٧٧

(٣) Guillaume de Tyr, *op. cit.* t. I, p. 22-24

نقل الترجمة باسرها عن القفطي ولم يصرّح بنسبتها اليه شأن اكثر النقلة في الاسلام . ومن وَهِم ايضاً بكتابة اسمه بالنون (Saklane) ري في كتابه الجوالي الفرنجية[1] . والصحيح سقلاب بالباء كما في ابن أصيبعة ، وهو معروف في الاسماء . ومنه احمد بن سقلاب في كتاب المكافأة (ص ٤٥) ومسجد ابن سقلاب في بَلِرم من جزيرة صقلية في كتاب المسالك والممالك لابن حوقل . وهذا الاسم يشبه ان يكون تعريب Esculape اله الطب في خرافات اليونان ، تُنعت به الاطباء . ولعل في تسمية والد يعقوب او جده دليلاً على انه كان طبيباً . وكثيرون من الاطباء في الشام كانوا يتلقون الطب كابراً عن كابر . فيكون يعقوب قد نشأ من بيت طب وعلم واورث انه مثل هذه المزية .

وكان متقناً للسان الرومي خبيراً بلغته ونقل معناه الى العربي[2] . ولا يبعد انه كان ايضاً لا يجهل اللاتينية او الفرنسية او على الاقل قد شدا شيئاً منهما اذ كان قد درج وشب بين اهلها .

وقد نص القفطي على انه « كان مقدسياً شرقياً ملكياً » ولكنه اغفل سنة ميلاده . ومثله ابن اصيبعة . وفي كتاب ري المذكور آنفاً انها سنة ١١٦ اي ٥٥٧ للهجرة ، ولا ندري ابن وجدها . واختلفوا في سنة وفاته فجعلها القفطي ٦٢٦ ، وقلده فيها ابن العبري ، وضبطها ابن اصيبعة في يوم عيد الفصح بدمشق في شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٥ ، اي في ٢٦ نيسان سنة ١٢٢٨

وكان الاطباء في ذلك العصر لا يجتزئون بدرس كتب جالينوس وابقراط ، بل يشتغلون معاً بمطالعة كتب الحكمة اي الفلسفة والهندسة وعلم الحساب واحكام النجوم والعلم الطبيعي . وكذلك كانوا يعرفون بالحكماء . ولا يزال الى اليوم الطبيب في الديار الشرقية مشهوراً باسم الحكيم . وزعم ابن العبري ان يعقوب قرأ شيئاً من الحكمة على تادوري الفيلسوف الانطاكي . ولم يذكر في ترجمة تادوري انه دخل قط مدينة القدس واستوطنها التدريس والاقراء . وانما غرّه قول القفطي عن يعقوب « قرأ شيئاً من الحكمة والطب على رجل

(١) E. Rey. *Les Colonies Franques en Syrie*, p. 180

(٢) عيون الانباء ٢ : ٢١٥

يعرف بالفيلسوف الانطاكي » وكان تادوري يعرف ايضاً بالحكيم الانطاكي . فاحب ابن العبري ان ينسب اليه ، وهو نظيره يعقوبي النحلة ، تلمذة يعقوب وهو ملكي ، لما بين الطائفتين من المناظرة[1] . فضرب صفحاً عن قول القفطي « كان هذا الفيلسوف قد شدا اشياء من علوم الاوائل بانطاكية وغيرها واستوطن القدس . وجعل داره بها شكل كنيسة . وتبتل للعبادة . واقرأ العلوم الى حدود سنة ثمانين وخمسمائة . وقرأ عليه يعقوب هذا شيئاً من اوائل هذه الصناعة[2] . والصحيح ما ذكره صاحب عيون الانباء ان هذا الفيلسوف كان راهباً في دير السيق . وبالتالي رومياً ملكياً خبيراً بالعلوم حسن الفطرة والفطنة . وله احكام صحيحة وانذارات عجيبة . فلازمه يعقوب واخذ عنه . واجتمع ايضاً في القدس بالشيخ ابي منصور النصراني الطبيب واشتغل عليه . وباشر معه اعمال صناعة الطب ، وانتفع به . وكان هذا ابو منصور طبياً مشهوراً عالماً حسن المعالجة والمداواة . خدم بصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب . وبقي سنين في خدمته[3] . ولعله كان ملكياً ايضاً مثل اكبر اطبائه اسعد بن المطران . ولم يشر ابن اصيبعة الى مولده ومنشإه . وكان الملك صلاح الدين مقرباً لبعض رجال الملكيين ويظهر فيما حكاه ري انه ادخل يعقوب ايضاً في خدمته ولم نجد لهذا القول ثبتاً فيما بين ايدينا من الآثار الاسلامية .

وزعم القفطي ان يعقوب « لم يكن عالماً . وانما كان حسن المعالجة بالتجربة البيمارستانية . ولمعادة كانت له . » وهذا القول مردود بما شهد به ابن اصيبعة . وكان طبياً عارفاً بصناعته ورجالها . وقد ادرك يعقوب وتتلمذ له في المعسكر المعظمي في اوائل اشتغاله بالدرس . وقرأ عليه شيئاً من كلام ابقراط فهو من اخبر الناس به . قال : « فكنت ارى من حسن تأنيه في الشرح

١) مما يدل ايضاً على تعصب ابن العبري انه اغفل ترجمة سعيد بن بطريق ، بطريرك الملكيين في الاسكندرية ، مع اشتهاره بصناعة الطب .

٢) اخبار الحكماء ، طبعة مصر ، ص ٢٤٨

٣) عيون الانباء ٢ : ١٨٢ و٢١٥

وشدة استقصائه للمعاني باحسن عبارة واوجزها وانها ما لا يجسر احد على مثل ذلك ولا يقدر عليه . ثم يذكر خلاصة ما ذكر له . وحاصل ما قاله . حتى لا يبقى في كلام بقراط موضع الا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة . ثم انه يورد نص ما قاله جالينوس في شرحه لذلك الفصل على التوالي الى آخر قوله . ولقد كنت اراجع شرح جالينوس في ذلك فأجدهُ قد حكى جملة ما قاله جالينوس باسره في ذلك المعنى . وربما بالفاظ كثيرة من الفاظ جالينوس . يوردها باعيانها . من غير ان يزيد فيها ولا ينقص . وهـذا شيء تفرد به في زمانه . » وقال عنه قبل ذلك : « كان اعلم اهـل زمانه بكتب جالينوس ومعرفتها والتحقيق لمعانيها والدراية لها . وكان من كثرة اجتهـاده في صناعة الطب . وشدة حرصه ومواظبته على القراءة والمطالعة لكتب جالينوس . وجودة فطرته . وقوة ذكائه . ان جمهور كتب جـالينوس واقواله فيهـا كانت مستحضرة له في خاطره . فكان مهما تكلم به في صناعة الطب على تفاريق اقسامها وتفنن مباحثهـا وكثرة جزئياتها انما ينقل ذلك عن جالينوس . ومهما سُئل عنه في صناعة الطب من المسائل والمواضع المستصعبـة وغيرها لا يجيب بشيء من ذلك الا ان يقول قال جالينوس . ويورد فيه اشياء من نصوص كلام جالينوس . ويقول هذا ذكره جالينوس في كذا وكذا ورقة من المقالة الفلانية من كتاب جالينوس ويسميه . ويعني به النسخة التي عنده . وذلـك لكثرة مطالعته اياها وانسه بها . »

وكان علم الطب وقتئذٍ محصوراً في مطالعـة كتب جالينوس وابقراط ، والاحاطة بمضمونها ومشتملاتها . فاذا لم يكن مثل هذا الحفظ لها والاستظهار التام ومثل هذا التضلع منها والنبوغ النادر هو العلم كل العلم فلا ندري ما هو .

واما حسن معالجته فلم تكن نتيجة تجربته ايام تولّيه خدمة البيمارستان في القدس فقط ، او لسعادة له ، كما ادعى القفطي غمطاً وانتقاصاً له . وانما كانت على الخصوص ثمرة اجتهاده وتأنيه في درس علة المريض ، واستقصائه في تحقيقها ، واستطلاع اعراضها ، حتى لا تخفى عليه خافية منها . وكان كثير السكينة ، ثاقب العقل ، سديد النظر . وهو ما نبّه عليه ايضاً ابن اصيبعة في ترجمته قال:

« فاما معالجات الحكيم يعقوب فانها كانت في الغاية من الجودة والنجح. وذلك انه كان يتحقق معرفة المرض اولاً تحقيقاً لا مزيد عليه . ثم يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر . وكان شديد البحث واستقراء الاعراض بحيث انه كان اذا افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرَضاً عرَضاً . وما يشكره مما يجده من مرضه حالاً حالاً . الى ان لا يترك عرَضاً يُستدل به على تحقيق المرض الا ويعتبره . فكانت معالجاته لا مزيد عليها في الجودة . وكان الملك المعظم يشكر منه هذه الحالة ويصفه ويقول لو لم يكن في الحكيم يعقوب الا شدة استقصائه في تحقيق الامراض حتى يعالجها على الصواب ولا يشتبه عليه شيء من امرها لكفاه »

ولا ندري ان طبيباً مدح بمثل هذه الصفات الكاملة والشروط التامة في زمانه . فلا شك انه كان قريع دهره . ولا يلتفت الى قول القفطي لجهله بمكانه .

ويظهر انه كان في الكرك قبل ان يفتتحه الملك العادل سنة ١١٨٩ . لانه على اثر الفتح اتى الى دمشق ، وهو شاب في زي اطباء الفرنج ، وقصد احد اعيان الملكيين الدماشقة الطبيب اسعد بن المطران . وجعل يتردد عليه ويخدمه التماساً لمنفعته واسعافه . وكان النصارى حينئذ يحرصون اشد الحرص على التشبه بالمسلمين في الملابس والاسماء والكُنى والالقاب ، خشيةً ان يُعرفوا فيستهانوا او يهانوا . ومع ان الاضافة في الالقاب « الى الدين » كانت مختصة بالمسلمين وكانت القاب اكابر النصارى لا تخرج عن الاضافة « الى الدولة »[1] للتمييز بين الفريقين ، لم يتوقف بعض اعيان المسيحيين عن محاكاة المسلمين والتلقب بالمضاف الى الدين مثل موفق الدين بن المطران ، وموفق الدين يعقوب بن القفّ ، ورشيد الدين بن موفق الدين يعقوب وغيرهم من الملكيين . ولذلك اتخذ يعقوب بن سقلاب لقب موفق الدين لنفسه وتلقب ولده فيما بعد بسديد الدين . ولما شاهد ابن المطران زيّ ابن سقلاب الفرنجي وهو مشرقي بالمعنيين انكره

١) ديوان الانشاء ، خزانة باريس ٤٤٣٩ ، ص ١٥٨

عليه وقال له فيما حكاه ابن ابي اصيبعة: «هذا الزيّ الذي انت عليه ما يمشي لك به حال في الطب في هذه الدولة بين المسلمين. وانما المصلحة ان تغير زيك. وتلبس عادة الاطباء في بلادنا. ثم اخرج له جبة واسعة عثابية وبقيارًا مكملًا. وامره ان يلبسها. ثم قال له ان ههنا اميرًا كبيرًا يقال له ميمون القصري. وهو يمريض. وانا متردد اليه واداويه. فتعال معي حتى تكون تعالجه. فلما راح معه قال للامير. هذا طبيب فاضل. وانا اعتمد عليه في صناعة الطب واثق به. فيكون يلزمك ويباشر احوالك في كل وقت. ويقيم عندك الى ان تبرأ ان شاء الله تعالى. فامتثل قوله. وصار الحكيم يعقوب ملازماً له ليلًا ونهارًا الى ان تعافى. فاعطاه خمسمائة دينار. فلما قبضها حملها الى ابن المطران. وقال له يا مولانا هذا ما اعطاني. وقد احضرته الى مولانا. فقال له خذه. فانا ما قصدت الا نفعك. فاخذه.»[1]

وكان ابن المطران عظيم المروءة، كثير الاهتمام باهل الصناعة الطبية، يقدمهم ويتوسط في ارزاقهم.

ويجب ان يكون يعقوب بن سقلاب فارق دمشق بعد ذلك وتوجه الى القدس. وتوصل فيها الى مباشرة البيمارستان الى ان ملك القدس الملك المعظم عيسى ابن السلطان الملك العادل الايوبي. فاختص به ونقله الى دمشق وجعله في صحبته. وانتفع بخدمته وآرائه الطبية. ولما طالت معرفته به حسن اعتقاده فيه حتى هم ان يوليه بعض المناصب في تدبير دولته لاعجابه بعقله واصالة رأيه. فامتنع يعقوب واقتصر على مداومة صناعة الطب فقط. ثم ساءت صحته وعرض له تقوس برجليه كان يمنعه من الحركة والمشي. فكان المعظم يستصحبه معه في اسفاره حرصاً على خدمته ومشورته. ويبالغ في اكرامه واعتقاده بالعطاء الجم والاحسان الوافر. وقال له يوماً يا حكيم لم لا تداوي رجليك. فقال له يا مولانا اذا سوس الخشب لا تنفع في اصلاحه حيلة. وكان قد طعن في السن وضعفت قوته. ولما توفي المعظم، وملك بعده ولده الملك الناصر داود،

---

١) عيون الانباء ٢: ١٧٧

دخل اليه يعقوب ودعا له . واشار الى عجزه وشيخوخته . وذكره بسالف خدمته . وانشده متمثلاً بشعر ابن منقذ :

انيتكم ، وجلابيب الصبا قُشُب ، فكيف ارحل عنكم ، وهي أسالُ ،
لي حرمة الضيف ، والجار القديم ، ومن اتاكم ، وكهول الحي اطفالُ .

فرق له الملك الناصر . واحسن اليه كثيرًا . وامر ان يستمر عليه ما كان مقررًا له في ايام والده الملك المعظم دون ان يكلف خدمة.

وما لبث ان اجاب داعي ربه . ودفن بدمشق وله من العمر ٦٧ سنة . ويظهر انه لم يترك شيئاً من المقالات والمصنفات . او لعل ابن اصيبعة اغفل التنبيه عليها .

ولا يعرف له من الاولاد الا ابنه سديد الدين ابو منصور الآتي ذكره.

الطبيب سديد الدين ابو منصور
ابن الطبيب يعقوب بن سقلاب الملكي

انفرد ابن اصيبعة بترجمته باسطر وجيزة هي كل ما بلغنا عنه . فلا بد من الاجتزاء بها . قال :

«هو الحكيم الاجل العالم من افاضل الاطباء . متميز في علم صناعة الطب وعملها . متقن لفصولها وجُملها . اشتغل على والده وعلى غيره بصناعة الطب وقرأ ايضاً بالكرك على الامام شمس الدين الخسروشاهي كثيرًا من العلوم الحكمية . وخدم الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم عيسى بن ابي بكر بن ايوب . واقام في صحبته بالكرك . وكان مكيناً عنده . معتمدًا عليه في صناعة الطب . ثم اتى الى دمشق وتوفي بها[1] .

١) عيون الانباء ٢ : ٢١٦